جامعة تكريت
كلية التربية للعلوم الانسانية
قسم التاريخ

المرحلـــــــــــــــــــــــة الثانيـــــــــــــــــــــــة

المادة : تاريخ أوربا في عصر النهضة

الاقطاع

م . م لقاء منذر قدوري

أزمة الاقطاع ونهايته .

اتصف العصر الوسيط في أوربا ببروز ظاهرة الاقطاع الذي تشكل على اثر سقوط الامبراطورية الرومانية وانهيار مؤسسة الرق التي ساهم الاقطاع بالقضاء عليها ، بدأت معالم النظام الاقطاعي الاساسية تبرز بشكل واضح في غرب أوربا منذ القرن التاسع م ، على أثر ازدياد هجمات البرابرة وتفكك الرابطة السياسية للحكومات المركزية التي أضعفها الانقسام والاقتتال لبعضها البعض ، وفي خضم هذه الفوضى وفقدان السيطرة على المناطق الزراعية النائية زاد نفوذ الملاكين واخذوا ببناء قواتهم بمن تجمع لديهم من الاتباع الفلاحين الذين فقدوا أرضهم بسبب كثرة الضرائب واعمال الرهن او تنازلوا عنها لقاء الحماية " **ان في استطاعتي حماية اراضي لا أرض الاخرين فأعطني أرضك ولسوف اردها اليك مقابل أجر بسيط** " .

وهكذا اصبح المجتمع الاوربي في ظل انعدام المركزية يدين بدورته الاقتصادية الى النظام الاقطاعي ، أذ نشأ امتزاج بين الارض والسلطان ادى بدوره الى خلق تراتيب اجتماعية يقف فيها الملك على رأس الهرم ويليه الاسياد ثم الطبقة الواسعة من الناس المرتبطة بمالكي الارض بحكم علاقاتها الاقتصادية التي رسختها العلاقات الحقوقية الموضوعة من قبل الاقطاعين .

اما عن خصائص النظام الاقطاعي ، اختلفت باختلاف البلدان التي نشأ فيها ففي انكلترا كان ضعيفاً نتيجة لسيطرة النورمان وقوة السلطة الملكية المركزية ، في حين ان ضعف الملكية في فرنسا وتفسخ السلطة فيها كانت من العوامل التي جعلتها أكثر وضوحاً ، بينما تأخر ضهورها في المانيا بسبب نظامها البدائي وشدة وسطوه الاباطرة .

تميز النظام الاقطاعي ببطء تقدم عملية الانتاج لطبيعة العلاقة بين السيد (صاحب الارض والأقنان معاً) والمنتج المباشر (القن) فأتخذ الاقتصاد طابعا مغلقاً اكتفائياً ، وانتشر التعامل بين الفلاح والسيد بالمدفوعات العينية وفرض اعباء السخرة ويتم التبادل البضاعي بين الفلاحين انفسهم داخل الضيعة الاقطاعية الواحدة ، أذن كيف تحددت العلاقات الاجتماعية في ظل الاقطاع ، وما هي حدودها .

كان الملك في المجتمع الإقطاعي يعد من الناحية النظرية سيد القطاعيين في أعلى السلم الاجتماعي ولكنه من الناحية العملية كان قد فقده سلطانه على الإقطاعيين الكبار فبات الملك كسائر الأمراء يعيش على ما تنتجه اراضيها الخاصة ولهذا مثلت الملكية في العصر الوسيط العنصر التقدمي وبدا منذ القرن العاشر الميلادي تحالف الأسرة الملكية مع سكان المدن أمرا لا مفر منه ضد دويلات الأمراء المتمردين، اما عن بقية الأسياد الذين يصعب التمييز بينهم فقد اختلفت ألقابهم باختلاف نوعية أقطاعتهم ومراتبهم الاجتماعية ، كالدوق والمراكيز والكونت والفيكونت وكان هؤلاء في عهد ما قبل الإقطاع يمثلون الملك في المقاطعات ويشغلون المناصب الإدارية العالية فيها ، فما لبثوا أن احتفظوا بألقابهم امتيازاتهم وأقطاعتهم .

والبارون في العهد الإقطاعي يعد تابعا من اتباع السيد الكبير أو المالك الأكبر يتميز عن بقية الفرسان الأحرار بامتلاك هو قصرا أو قلعة فكان عليه لقاء منحه ارضا أن يؤدي خدمات ضريبية معينة ويتعهد بتقديم واجبات متنوعة أو المال وقت الحرب والعقد الإقطاعي يلزم البارون بتقديم وجبات متنوعة تجاه اتباعه من الفلاحين كما كان يا حق لسيد المالك استرداد ارضه إذا أخل البارون بإحدى الشروط أو إذا لم يكن له وريثاً .

وشكل الاقنان في السلم الإقطاعي أدنى الطبقات الاجتماعية ، فالقن فلاح قراوي يعيش على قطعة أرض من الأرض يقدمها له الإقطاعي على أن تتناسب مساحتها مع مقدار اعبائه الإقطاعية وهو لا يتمتع بأي حق مدني على سيده وأن كان القانون من الناحية النظرية يعتبره حراً فعلاقته بالسيد علاقة عرفية تعاقدية وتبعية ومصيره مرتبط بتعسف الإقطاعي واستبداديته لكون العلاقة بينهما مزدوجة اقتصادية من جهة ، وسيديه من جهة ثانية .

ارتبطت عملية التبدل في جوهر العلاقات الاجتماعية التي عرفتها أوربا خلال العصور الوسطى بجملة من العوامل أمتد بعضها من القرن الثاني عشر حتى القرن الثامن عشر ، وان اختلفت هذه العوامل بين مكان وأخر الا انها في مجملها حطمت اقطاعية القرون الوسطى وما تفرع عنها وما ارتبط بها من مؤسسات وايديولوجيات سياسية ودينية واقتصادية واحلت مكانها مؤسسات برجوازية تختلف عنها في هيكلها وبنيتها وغايتها .

اما عن ابرز العوامل التي ساهمت في القضاء على الاقطاع :

١- ترتب على ازدهار التجارة في أوربا منذ القرن الثاني عشر استخدم النقد بشكل واسع ، ومع انتقال السلطة الى الملوك واستغناهم عن استخدم الجيوش الاقطاعية لقاء دفع ضرائب نقدية اخذ الاسياد ببيع اقنانهم واستبدالهم بعمال مأجورين ، كما ادى انتعاش المدن وظهور الاسواق التجارية الى نزوح عدد كبير من الاقنان هرباً من جور الاسياد وطلباً لإيجاد وسيلة للعيش ، وهكذا اخذ الاقتصاد النقدي يحل تدريجياً محل الاقتصاد العيني مما عجل في انهيار الاسس التي قامت عليها الضيعة الاقطاعية التي تعد من اهم الاركان التي قام عليها النظام الاقطاعي .

٢- أدت الحروب الصليبية وما نتج عنها من اعباء مادية (تجنيد المرتزقة وتقديم الاسلحة) والنقص في اعداد الاقنان الى اضعاف الاقطاعين خاصة الذين لاقوا الهزيمة الحربية منهم في الشرق وعادوا الى أوربا لينهضوا بأقطاعهم من جديد .

٣- ساهمت حركة الكشوف الجغرافية في انتعاش البرجوازية التجارية من جراء استثمار الشعوب واتساع حركة التجارة العالمية ، وأدت ايضاً الى تفكك الاقتصاد الطبيعي وقيام الانتاج الرأسمالي نظراً لتدفق الذهب والفضة وتوفر النقد المتداول ، فساندت الحكومات الاستبدادية في دعم نفوذها ، كما حصلت على تأييد الطبقة الثالثة لها واحتكرت تمثيلها في البرلمانات والمجالس بفضل نفوذها المادي .

٤- أدى التطور الصناعي واشتداد الطلب على الصناعات في الاسواق العالمية الى الانتقال من الانتاج الحرفي البسيط الى الانتاج الضخم لتلبية حاجات السوق من السلع ، وهكذا تطورت العلاقات السلعية فأصبح المنتج الصغير مرتبطاً بالتجار بدل الاقطاعي .

٥- برزت مع الملوك ظاهرة تدعيم السلطة المركزية في الدول التي اخذت تجنح نحو تثبيت سيادتها وحدودها القومية ، اخذ الملوك الاستغناء عن جيوش الا قطاع واستخدم الجيوش النظامية لضربهم ، وتجريدهم من السلطات القضائية بإقامة محاكم ملكية بدل محاكمهم ، ولما كان من مصلحة البرجوازية تحطيم الحواجز الاقتصادية التي أوجدها الاقطاع واقامة توازن سياسي في القضاء على الامتيازات التي يتمتع بها النبلاء دونهم وفك ارتباط الاقنان بالأرض لكونه يمدهم باليد العاملة الرخيصة ، وقد تحالفت هذه الفئة مع الملوك وقدمت لهم كل العون والمساندة المالية والدعم السياسي ، وأتخذ نضال البرجوازية ضد الأرستقراطية الاقطاعية طيلة عصر النهضة عدة اشكال ثورية ظهرت في الثورات الفلاحية التي قامت في انكلترا وفرنسا والمانيا وروسيا وفي حركة الاصلاح البروتستانتي ، واخيراً في ثورة ١٧٨٩ الفرنسية التي كنست بقايا الاقطاع في فرنسا وزعزعت كيانه في جميع اقطار دول أوربا .